المعجزة

(إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم)[1]

أ. د. مازن المبارك(*)

لقد كان أبرز ما تفخر به اللغة العربية أنها هي لسان الوحي الإلهي، وأنها كانت المظهر اللغوي للمعجزة الإلهية الخالدة المتجليّة في القرآن، وأعجب ما في الأمر أن العرب كانوا قبل نزول القرآن أهل لسَن وفصاحة وبلاغة، إنهم أهل اللغة التي نزل بها القرآن، وأهل التنافس فيما بينهم في الفصاحة وحسن البيان، بل لقد سمعوا من القرآن لغة من لغتهم، وجُملاً من حروفهم، ولكنهم رأوا في آياته نسجاً لم يألفوا مثله في نثر أدبائهم، ولا في شعر شعرائهم، ولا في سجع كهّانهم، إنّهم وصفوه على لسان الوليد بن المغيرة بأنه سحر ساحر!! ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ١٨-٢٤].

إن اللغة التي عرفها العرب معرفةَ فطرة وسليقة، بلغت في نفوسهم وعلى ألسنتهم مبلغاً عظيماً من التمام والكمال، جاءتهم هذه المرّة في القرآن بما بهر ألبابهم وسيطر على أذواقهم وقلوبهم، فلم يعد يسع أحدهم

(١) عنوان كتاب للدكتور أحمد بسام ساعي، صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سنة ٢٠١٢م.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

حين يدعوه القرآن إلى الإيمان إلَّا أن يترك دين آبائه وأجداده، وإلّا أن يترك العصبيّة للأهل والقبيلة والنسب، وهي حميّة جاهلية عُرفوا بها، وكانت من حياتهم قوامها، ومن معيشتهم ركنها، وإلّا أن يسلّم بتأثير من اللغة القديمة الجديدة لهذا الدين الجديد!

لقد كان عمر بن الخطاب عارفاً بلغة العرب، يُطلق في المفاضلة بين أساليبها الأحكام، فيحكم للنابغة، ويحكم لزهير... فإذا هو يسمع آيات من سورة (طه) فيُذعن ويَلين ويُسلم.

كم من عربيٍّ دخل على النبي ﷺ مشركاً فسمع آية أو اثنتين فخرج مؤمناً. بل إن بعضهم بلغ به الانبهار حدًّا جعله يسجد للكلام الذي سمعه!

ولم يجد من لم يؤمن منهم غير سلاح المكابرة والعناد والفرار من سماع اللغة القرآنية الآسرة القاهرة، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

والمدهش المحيِّر أن التحدّي الذي استمر ثلاثاً وعشرين سنة يناديهم صارخاً في وجوههم هادراً في مجتمعاتهم، والذي هو مستمرّ إلى اليوم، والذي سيستمرّ مادامت السماوات والأرض، لم يطلب إليهم أن يأتوا بكلام في حجم القرآن، ولا بعدد من السور. بل بسورة من مثله، وإن من سوره ما لا يتجاوز ثلاث آيات!

إنه التحدّي الذي أعطاهم وأعطانا وأعطى البشرية إلى يوم الدين حكمه الجازم، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

قال الجاحظ: «بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشدّ ما كانت عدّة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله

وتصديق رسالته... وهو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه وإن كان كذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلّما ازداد تحدّياً لهم به وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشَّف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفيًّا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا. قال: فهاتوها مفتريات، فلم يَرُم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر»[٢].

وقال في (حجج النبوّة): «تحدّاهم بما كانوا لا يشكّون أنهم كانوا يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرّعهم بعجزهم، وينقصهم على نقصهم، حتى تبيّن لضعفائهم وعوامّهم، كما تبيّن لأقويائهم وخواصّهم، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبيًّا قط...».

وانصرف العلماء على مدى العصور يخصّون القرآن وإعجازه بالبحوث والدراسات، وكان عمل كل منهم مكافئاً لما يملكه هو في نفسه من إحساس صادق، ومن وسائل التذوّق والمعرفة، إنهم كالغوّاصين اختلفت طاقاتهم على الغوص، فراح كلّ منهم يستخرج من البحر المحيط على قدر طاقته ووسائله... ولكنْ هيهات هيهات!! فالبحر أعمق وأوسع وأغنى، إنها الطاقة البشرية المخلوقة المحدودة أمام القدرة الإلهية التي لا تنفد طاقتها، ولا تنتهي نفائسها وذخائرها، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وما زال العلماء يتناولون الإعجاز في مؤلَّفاتهم حتى صارت لمؤلَّفات الإعجاز فهارس تجمعها وتعدّدها، وأحسب أن ذلك لن ينتهي لأن وجوه الإعجاز لن تنتهي ولن تنكشف.. ولأن الإعجاز سيبقى هو الإعجاز مهما يكشفوا من وجوهه وجوانبه، ولأن التحدّي لم يوجّه إلى أهل عصر دون

(٢) الإتقان للسيوطي: ١١٧-١١٨.

عصر، إنه تحدٍّ للإنس والجنّ على مدى العصور والدهور، ولا يذهبنَّ بأحد ظنّه إلى أن دراسةً من الدراسات يمكن أن تكشف عن وجه الإعجاز اللغوي أو وجوهه في كتاب الله... فذلك ما لم يفعله أحد ولن يفعله، وهم لن يفعلوه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ولكن الذي يتصدّى له الدارسون هو محاولة الإجابة عن أسئلة تتردد في النفس منها: ما سرّ المعجزة اللغوية في القرآن؟ لِمَ عجز العرب بفصحائهم وبلغائهم، وخطبائهم وشعرائهم، عن الإتيان بمثله أو معارضته؟ بل إن من أهم ما يتردّد في النفس سؤالاً عن السرّ في اختلاف أثر القرآن أو تأثيره في نفس السامع أو المتلقّي بين العرب القدماء والعرب اليوم؟!

لقد عرفنا مَن أسلم منهم لدى سماعه آية أو آيتين، وعرفنا من سجد لآية، وعرفنا من خاف الإسلام والتسليم والاستسلام إذا سمع فآثر اللَّغو والفرار من السماع... ثم رأينا عرب اليوم يقرأ أحدهم القرآن كلَّه فلا يتأثر!! ورأينا من يختم القرآن في السنة أو في شهر رمضان عدداً من المرّات، ثم يخرج منه كما بدأ فيه!! فلماذا نجد هذا الفرق الكبير بين عرب الأمس وعرب اليوم؟ لماذا والقرآن هو القرآن، والإنسان هو الإنسان؟ ما السرّ في اختلاف الأثر لدى سامع القرآن أو قارئه بين القديم والحديث؟ ما السرّ في تلك «الهزّة» أو «الصدمة» التي كانت تحدثها كلمات ربّنا في نفس عبدٍ لم يعرفه، ولم يؤمن به، وعَبدَ غيره هو وأبوه وجدّه، وكيف غاب هذا الأثر؟ وما السرّ في غيابه عن نفوس آمنت بربّها، وعبدته، وصامت له نهارها، وقامت له ليلها، ثم تسمع كلماته أو تقرؤها وتمرّ بها كأن لم تسمع وكأن لم تقرأ؟! وإن كان ممن يقرأ اليوم كتاب ربّه أو يسمع تلاوته فيخشع قلبه وتدمع عينه ويطمئن قلبه، وقليل ما هم.

إنه السرّ الذي سيبقى الدارسون ساعين وراءه، ولكن أحداً منهم لم يصل ولن يصل إليه، ولكن حسبهم أن يدلّوا على مواضع منه، أو أن يشيروا

إليه، وأن يجتهدوا في الوقوف على أسبابه أو بعضها، حسبهم أن يجتهدوا، فباب الاجتهاد مفتوح، والدعوة إلى النظر في كتاب الله دائمة، ولكنهم قد يخطئون وقد يصيبون ولكلٍّ أجره على حسب نيّته.

ولعله من المفيد ونحن بصدد الحديث عن الإعجاز اللغوي للقرآن أن ندفع الرأي القائل بأنه لا يجوز تجاوز آراء السابقين من العلماء، وأنه لا يجوز الخوض في لغة القرآن بحجة الكشف عن سرّ الإعجاز، فلقد قال القدماء فيها ما يكفي! وأن ندفع كذلك الرأي القائل إن دارس الشريعة يكفيه القليل من اللغة وعلومها، وأن المختص بالشريعة لا حاجة به إلى دراسة الكثير من النحو والبلاغة.

إن القائلين بالرأي الأول يغلقون باب الاجتهاد، وهو باب فتحه ربّنا تبارك وتعالى، وحثّ المسلمين على الإقبال عليه؛ فلقد وصف سبحانه وتعالى لسان وحيه وقرآنه بأنه «عربي»، وأعاد هذه الصفة في القرآن إحدى عشرة مرة، وهي صفة لم تطلق في القرآن على شعب ولا على وطن، وإنما أُطلقت على القرآن وعلى اللسان، أي على اللغة.

وأمر سبحانه وتعالى بتدبّر القرآن ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، فكيف يكون للقرآن تدبّر، إلّا بتدبّر لغته، والاجتهادِ في فهمها لغةً وبِنية وإعراباً ودلالة واستعمالاً؟

وأما أصحاب الرأي الثاني فهم يدفعون طلاب الشريعة إلى الغوص فيها بعد تجريدهم من آلاتها!! إنهم كمن يجرّدون الغوّاص من أدوات الغوص، ويمنع من يريد الوصول إلى أعماق المنجم من استعمال أدوات الحفر، ورحم الله الجرجاني الذي قال: «وهل رأيت رأياً أعجزَ، واختياراً أقبح ممّن كره أن تُعرف حجّة الله تعالى من الجهة التي إذا عُرفت منها كانت

أنور وأبهر، وأقوى وأقهر»[٣]. بل هو يرى في إبعاد الدارسين عن علوم اللغة والنحو من دارسي الشريعة كمن يصدّ عن كتاب الله ومعرفة معانيه.

ولست أشك في أن الحديث عن الإعجاز اللغوي في القرآن لن يتوقف ولن ينتهي، لأنه حديث عن كتاب «لا يشبع منه العلماء ولا تنتهي عجائبه»، ولا شك أنه كلّما اكتشف باحث جديداً في لغة القرآن فسيأتي بعده باحث يجد الأجدّ، لأن الإعجاز صفة ملازمة لكتاب الله، ووصف دائم للكتاب، ولأن الكتاب «ذكر» دائم خالد محفوظ بحفظ الله، ولن يبقى كتاب الله من دون إعجازه، وسيبقى صوت التحدّي مرتفعاً مسموعاً، ومهما يُكتشف فيه إعجاز فستبقى بعدُ أوجه بل وجوه لن تكتشف.

كتاب جديد

ويقف الدكتور بسام ساعي اليوم في الجزء الأول من كتابه «المعجزة» وهو (ظواهر التجديد اللغوي في القرآن الكريم) أمام ظاهرة اختلاف تأثير القرآن في نفس المتلقّي، محاولاً معرفة شيء من أسرار الظاهرة القرآنية المعجزة، إنه يحاول أن ينتزع نفسه من جوّها المعاصر الموبوء، الذي شابته شوائب من عُجمةٍ واستغراب، ونظرات وأفكار وفلسفات، ليعود ممثّلاً حال العربيّ ابن اللغة، وابن الصحراء، وابن عصر النبوّة، ليقرأ القرآن وكأنه يستمع إليه أول مرّة بقلب مشوق إلى الحقيقة، ونفس صادقة، يوجّه فكره بدأب وجدّ، ليعيش قلباً وفكراً ونفساً في جوّ المعجزة، لعلّه يكشف جانباً من جوانب الإعجاز. إنه يضع نفسه موضع العربي الذي يسمع كلمات الوحي لأوّل مرّة تتنزّل فيها على قلب النبيِّ ﷺ فيبلّغها قومه كما نزلت فإذا

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٨.

هم - على فصاحتهم وبلاغتهم - يُصدمون بها صدمة تهزّهم هزًّا، ويسمعون لغة بالغاً أثرها في نفوسهم وعقولهم حدّ الإعجاز، فتعقل ألسنتهم، وتجبرهم على الإقرار بضعفهم وعجزهم إزاء جديدٍ من لغتهم لم يألفوه، إنه يصدعهم صدعاً، ويدعوهم إليه دعًّا، ولا يستطيعون لتأثيره في نفوسهم دفعاً فيتواصون بالفرار من سماعه، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

يقول المؤلِّف: «هل أستطيع سماع القرآن بأذن العربيّ الأول، وكأنني أسمعه كما سمعه هو أوّل مرّة؟ هل أستطيع التجرّد من ذاكرتي القرآنية والإسلامية وأتصوّر أنني ذلك الجاهليّ الذي عاش عصر الوحي وسمع القرآن وهو يتنزَّل آية بعد آية، فتلتقط أذناه عذريّة التعبير القرآنيّ وهما ما تزالان بريئتين من التعوّد والتكرار والأُلفة التي تحجب عنهما عبقريّةَ هذا التعبير وجِدّته وتفرّده؟»(٤).

لقد حاول الدكتور الساعي أن يسمع القرآن بأذن العربي الذي سمعه لأوّل مرّة قاصداً من ذلك أمرين:

أولهما سبب الهزّة النفسية وعمق أثر اللغة القرآنية في النفس العربية بعيداً عمّا ألفه أو عمّا تتركه تلاوة القرآن وصحبته من ألفةٍ في نفس المسلم، وهي ألفة تحجب عنه الكثير من روعة التعبير وجدّته وفرادته.

وأما الأمر الثاني فهو أنه يريد إثبات إعجاز اللغة القرآنية بعيداً عن الخضوع للنزعة الإيمانية به، لتكون الحجّة في إثبات الإعجاز منطلقة من علم حياديّ ومنطق عقلي، لا يدعو إلى اعتقادها إيمان صاحبها بالوحي والنبوّة والإسلام.

(٤) المعجزة: ٤٩.

إنه يريد أن يقول إن القرآن انتقل باللغة التي كانت لدى العرب عُرفاً تعارفوا عليه، إلى جعلها قاعدة ثابتة تناولت كلَّ ما عرفوه أو ما كانت تشمله أعرافهم اللغوية من كلماتٍ وأبنية وتعبير ونحو وصرف وصور بيان(٥).

ودعا المؤلِّف قارئ كتابه إلى الوقوف عند ظواهر بدت له في سوَرٍ من القرآن، تحدّث عنها في القسم الأول من كتابه، وكان عن لغة الوحي الجديدة، ثم راح يتحدث عن البلاغة القرآنية الجديدة في القسم الثاني منه، جامعاً بين الحديث النظري والتطبيق العملي.

وقف الدكتور الساعي دارساً لما جدّ في القرآن متوزِّعاً على مختلف جوانب الأسلوب اللفظية والتعبيريّة والنحوية والصرفية والبيانيّة، فضلاً عن الجانب الفكريّ(٦).

وكان الدكتور الساعي يستعين في دراسته وتحليله للغة القرآنية بكلِّ ما يملك من رصيدٍ ثقافيّ عربيّ غربيّ؛ فهو قد تعلّم في جامعة دمشق، ثم في جامعات مصر... وعاش في الغرب، في لندن، محاضراً ومدرّساً ومشاركاً في نشاط علميّ واسع، وكانت عنده ثقافة عربية إسلامية مختزَنة، وثقافة غربية مستحدَثة، ورأى أن ذلك أتاح له فرصاً جديدة للدراية والخبرة، ولإغناء فهمه للقرآن، وإدراك المزيد من معانيه وعجائبه. وهو يقول بعد شرح منهجه شرحاً مسهباً: إن عمله ليس أكثر من محاولة مخلصة للاقتراب من الحقيقة التي يجد نفسه عاجزاً عن الوصول إليها عجز البشر عن إدراك ما هو إلهيّ.

على أنه مهما يكن حظ الدكتور الساعي من النجاح في محاولته البكر، وسواء أوافقناه أم خالفناه في بعض ما قال فإننا نراه مجتهداً مأجوراً، ثم لا نملك إلا أن نعجب بأمرين اثنين سعى إلى تحقيقهما في محاولته:

---

(٥) المعجزة: ٥٦.

(٦) المعجزة: ٣٣.

الأمر الأول هو محاولة الإجابة عن السؤال المحيّر الذي يملك على الناس نفوسهم حين يوازنون بين أثر اللغة القرآنية في نفوس العرب في عصر النبوّة وأيام تنزّل الوحي، وبين أثرها في نفوس عرب اليوم.

والأمر الثاني هو محاولة إثبات الإعجاز بالعقل والمنطق، لا بالإيمان والوجدان، وهذا أمر لم يقم به إلا أئمة هذا الشأن من العلماء بالإعجاز الذين وهبهم الله حسن الذائقة ونفاذ الفكر وسعة العلم باللغة وعلومها، وحسبي أن أذكِّر بما كنت قلته عن الإمام الجرجاني، صاحب نظرية النظم في إعجاز القرآن، من أنه لم يعتمد في إثبات الإعجاز على نزعة إيمانية ولا على حكم سابق، بل استطاع أن يثبت ما أثبته بما جمع من سعةِ العلم، وبعدٍ في النظر، وسداد في الرأي، ورهافة في الذوق، إنه كان يأتي بالآية من القرآن، أو البيت من الشعر، فيضع يدك على ما فيه من جمالٍ تتذوّقه معه، ثم يأخذ بيدك ليقنعك عقلاً بما أحسسته ذوقاً، وبذلك يجمع في تحليله بين الذّوق والعقل، وبين الحسّ والعلم.

ويرى الدكتور الساعي أن القرآن نقل اللغة نقلةً بعيدة الأثر من (عُرف) تعارفوا عليه إلى (قاعدة) مستحكمة[٧]، وقد عرفنا أن ما يتحدث عنه الناس من إدراك الجمال اللغويّ وأثره بل إعجازه أمر معروف عند من يحسن ذوق الكلام، ولكنه مجهول «من حيث لم تنبثق فيه أوضاع تجري مجرى القوانين التي يُرجع إليها، فتستخرج منها العلل في حسن ما استحسن وقبح ما استهجن» كما يقول الجرجاني الذي يريد أن يصل إلى أن للذوق أساساً من العلم يدعمه.

ويمتاز منهج الدكتور الساعي بعنايته بدراسة اللفظة المفردة وبكلِّ ما يتصل بها أو تتصف به في ذاتها صوتاً وأصلاً أو جذراً واشتقاقاً، بعيدة عن سياقها في (النظم). إن منهج الدكتور الساعي في الحديث عن (المعجزة)

(٧) المعجزة «القرآن يمهّد لتحويل الأعراف اللغوية إلى قواعد»: ص٥٦.

منهج يستعين على تبيين مواطن الجمال وأسرار الروعة بكلِّ ما تسمح به وتتصف به الكلمات والجمل والآيات في جوّها مفردة ومجموعة، بياناً قائماً على العقل والعلم والمنطق.

وإذا كانت قضيّة الإعجاز وأسراره لا تنقضي؛ لأن الإعجاز صفة للقرآن، وستبقى ملازمة لموصوفها ما دام، وهو (الذِّكر) الخالد، فإن البحث فيها سيستمرّ؛ لأن كتاب الله منجم كلّما بلغت عمقاً من أعماقه، وكلما ملكت آلة من الآلات الموصلة إليه، وجدت ما هو أشدّ وأسدّ، وتطلّعت إلى ما هو أحدث وأجدّ. على أن الدكتور ساعي وفِّق في الكثير مما جاء به، واستطاع أن يبيِّن الفرق بين ضيق الكلمة أو الجملة بمعناها وبأثرها في خطاب البشر، واتساعها وعمق أثرها في كلام الخالق سبحانه. وقد رأيت الذين تحدّثوا عن الإعجاز من القدماء والمحدَثين يتناولون الحديث عنه من وجهات مختلفة، وقد تشعَّبت بهم الطرق، ولم أرَ أحداً تقحَّم الطريق الصعب الذي تقحَّمه د. بسام ساعي بجرأة وفرادة، وتفصيل في التطبيق العملي وكأن قلمه مبضع جرّاح ماهر يُشرِّح أو يَشرح ويحلّل اللغة بكثير من البراعة والذوق والحسّ اللغويّ.

إنه قدّم دراسة جديدة جادّة يريد منها - كما قال - أن نضع أيدينا - بقدر استطاعتنا البشريّة المحدودة - على تلك البصمات الجديدة التي تركها الوحي على لغتنا. إننا نريد أن نجيب عن سؤال: أين الجديد في لغة الوحي؟ وأين هو من الأصالة في لغتنا؟[٨].

وإن كانت المعجزة ستبقى معجزة، وستبقى خالدة لا يحيط بكمالها ولا بتمامها بشر؛ لأنها صفة (الذِّكر) وهو ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠].

* * *

(٨) المعجزة: ٦٢.